رواية "1984" للكاتب البريطاني جورج أورويل ليست مجرّد عمل أدبي للتسلية، بل هي شهادة فكرية على ماهية الطغيان الحديث، حين يتحوّل من نظام حكم إلى منظومة كاملة تبتلع الإنسان عقلاً ووجداناً. ففي حين اعتادت أدبيات الاستبداد أن تُعرّف البطش بأدواته المادية، بالزنازين، وأحبال المشانق، والأجهزة الأمنية التي تلاحق الأجساد في المجال العام. تأتي النبوءة الأكثر إفزاعاً التي تركها جورج أورويل في روايته "1984"، حيث لم يكن الطغيان الحقيقي في قسوة التعذيب داخل زنازين "وزارة الحب"، بل في تلك الغرف الهادئة التابعة لـ "وزارة الحقيقة"، حيث لا يُراق دمٌ، بل تُراق اللغة، وتُمارس أعتى عمليات الاغتيال الصامت.. اغتيال الكلمات.

في حوارٍ يفيض بالبرود، يقف (سايم) -المسؤول عن إعداد الطبعة الحادية عشرة من قاموس "اللغة الجديدة" (Newspeak)- مباهياً (ونستون سميث) بإنجاز الحزب الفريد: "ألا ترى أن الغاية النهائية للغة الجديدة هي التضييق من آفاق التفكير؟ فالكلمات تتناقص عاماً بعد عام، كما يتضاءل مدى الوعي والإدراك شيئاً فشيئاً... ستصل الثورة أوجها حينما تكتمل اللغة وتُتقن". لم يكن (سايم) يصف تعديلاً لغوياً عابراً أو معجماً لتبسيط المفردات، بل كان يُعلن عن تدشين إستراتيجية سياسية فائقة، هندسة الوعي البشري عبر إفقار القاموس.

مقدمة لرواية «مزرعة الحيوان» كتبها جورج أورويل (١/٢)

من وسيلة تواصل إلى شفرة حاسوبية

لا ثقافة بلا لغة ولا مُجتمع بلا ثقافة، وبالتالي فإن اللغة تُعتبر العامل الرئيسي لبناء المجتمعات، فمن خلالها يتم التواصل والتعبير، ويتم بالتالي التماسك المجتمعي. فاللغة في جوهرها ليست حروفاً مصفوفة للتخاطب اليومي وحسب، بل هي الفضاء الحيوي الذي تتشكل فيه المعاني، والمركب الوحيد الذي يقود العقل إلى شاطئ الوعي والسؤال.

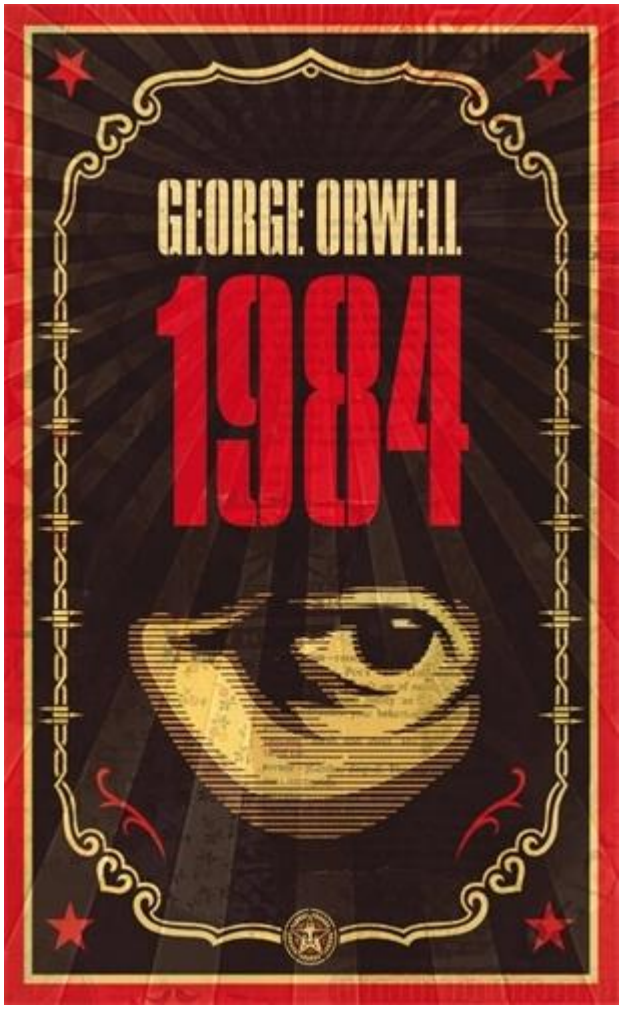

حين أدرك (الأخ الأكبر) هذه الحقيقة، لم يتعامل مع اللغة بوصفها وسيلة للتعبير، بل بوصفها وسيلة هيمنة. ففي دولة أوقيانيا، أرادت السلطة تحويل الملايين من البشر إلى ما يشبه أنظمة حاسوبية ذات برمجة مغلقة، مفردات محددة وصارمة لا تقبل التأويل، والمعاني الفرعية والاستعارية تُطمس عمداً حتى تُنسى.

إن الكلمات تكتسب قوتها عبر التاريخ من غناها الدلالي، ومن قدرتها على حمل الشك، والمجاز، والمفارقة، والتناقض. وحين تُجرّد الكلمة من مجازها وتُختزل في وظيفة أداتية، يضيق المدى الذهني بالضرورة. فالإنسان لا يستطيع أن يفكر فيما لا يملك كلمات للتعبير عنه. وإذا انعدم المفهوم في الوعي اللغوي، استحال وجوده في الحيز الذهني. ومن

هنا تتجلى النبوءة الأورويلية الصادمة: أن تصبح "جريمة الفكر" مستحيلة الوقوع ليس لأن الناس باتوا يخشون العقاب، بل لأن الجريمة ذاتها تصبح مستحيلة نظرياً، إذ لن توجد في القاموس مفردة واحدة يمكن من خلالها ارتكاب المعصية الذهنية.

المفكر في مواجهة الثائر

تُعدّ الأجيال الصاعدة أكثر المُهددين من تطور اللغة الجديدة، لأنهم لن يعرفوا أي كلمة من كلمات اللغة القديمة، وكلمات اللغة الجديدة من غير المنطقي أن تكون إلا خادمة للنظام. وبهذا لن يُعرف الاعتراض، لأن كلمة "اعتراض" بذاتها غير موجودة، وإذا قرأوها لن يعرفوا معناها. أما الجيل القديم كأمثال (سميث) و (بارصون) وحتى (سايم) وهو من المسؤولين عن إعداد اللغة الجديدة، سيكونون ممن يشكلون خطراً داهما على النظام، ليس لأنهم يخططون لثورة، ولا لأنهم قد يعارضون، بل فقط لأنهم يفهمون معاني بعض الكلمات من اللغة القديمة، وبهذا يشكلون مشروع معارض صامت، ومفكّر متمرّد.

في هذا المناخ الممسوخ لغوياً، يُعاد فرز أعداء المنظومة وفق معيار الخطر الحقيقي على استقرارها. فلم يكن النظام يخشى الثائر بمقدار ما يخشى المفكر. فالثائر، في المنطق الأمني، كائن يمكن احتواء غضبه المادي، أو ترويضه بالحصار الاقتصادي، أو إخراجه من التاريخ بحبل يلتف حول عنقه داخل زنزانة معتمة. أما المفكر، فخروجه عن النص لا يتوقف عند ذاته فحسب، بل إنه مشروع خطير ومستمر لإنتاج وعي جمعي مضاد.

معادلة الطغيان القصوى: الولاء هو انعدام التفكير

تصل الهيمنة إلى ذروتها حين تنقلب المفاهيم على رؤوسها، وحين يتحقق الشعار الأورويلي: "الحرية هي العبودية". ولكن كيف يمكن لكائن بشري أن يرفض العبودية إذا كانت كلمة "حرية" نفسها قد سقطت من لغته؟ كيف له أن يدرك قيد جسده إذا لم يعد يملك المفهوم الذي يُعرّف القيد؟

عند هذه المحطة، تتبدل أدبيات السلطة، فلا يعود النظام بحاجة إلى إقناع ضحاياه، لأن المجتمع يكون قد انزلق بكليته

نحو ما يمكن تسميته "العبودية الطوعية". هنا يُفرّغ التفكير من معناه وتنتفي الحاجة إليه، فالولاء التام لا يعني الطاعة الواعية، بل يعني انعدام الوعي بوجود خيار آخر أصلاً. فالرقابة لم تعد بحاجة إلى "شاشات رصد" معلّقة على الجدران، ولا إلى دوريات أمنية تبحث عن المشبوهين هنا وهناك، بل استقرت الرقابة في أعماق الدماغ، حيث باتت اللغة نفسها هي الحارس والسجان.

وحين تكتمل اللغة الجديدة، يُعلن الطغيان انتصاره الأخير: لا حاجة بعد اليوم لخوض سجال فكري مع المعارضين، فاللغة قد أُفرغت من أدوات الجدال، وتحول المجتمع إلى قطيع مطمئن في خضوعه، يعتقد أنه يمارس كمال الاختيار في اللحظة ذاتها التي يكون فيها مسلوب الإرادة تماماً.

مقدمة لرواية «مزرعة الحيوان» كتبها جورج أورويل (٢/٢)

أورويل بيننا: "نيوسبيك" العصر الحديث

ليست أوقيانيا خيالاً روائياً يخص الحرب الباردة، ولا وثيقة تاريخية كلاسيكية كُتبت لعهدٍ ولّى عليه الزمن وطوى التاريخ صفحاته. إنها البنية التشغيلية لكل خطاب استبدادي يمارس الهيمنة في عالمنا المعاصر.

يكفي أن نراقب كيف تعمل الترسانة الإعلامية والسياسية اليوم في التعامل مع الإبادة والحروب الاستعمارية، لندرك أن "النيوسبيك" لم تمت، بل اكتست حلة ليبرالية وتقنية أكثر خبثاً ونعومة. ما نراه اليوم من هندسة للمصطلحات هو استنساخ حرفي لمنطق أوقيانيا:

- حين تُوصف عمليات المحو الممنهج والتطهير العرقي بحق شعب محاصر بأنها "حق مشروع في الدفاع عن النفس".
- وحين يُستبدل قتل الأطفال والمدنيين وتدمير المشافي بعبارات تقنية مبردة مثل "أضرار جانبية" أو "أهداف محتملة".

- وحين تُجرّم الضحية لأنها تصرخ، وتُختزل مقاومتها في قوالب "الإرهاب"، بينما يُعاد تدوير عنف المستعمر كفعل "تنويري أخلاقي" لحماية الحضارة وقيم الإنسانية.

إن هذا التلاعب اللغوي ليس مجرد خلاف حول التسميات، بل هو محاولة واعية لتجريد الواقع من شحنته الأخلاقية. فالاستبداد اليوم، تماماً كـ "الأخ الأكبر"، يدرك أن السيطرة على الجغرافيا لا تكتمل إلا بالسيطرة على القواميس، فإذا استطاع أن يفرض عليك مصطلحاته، وأن يُملي عليك ما يجوز وما لا يجوز، يكون قد ربح نصف المعركة، وجعل من مقاومتك فعلاً غير مفهوم في اللغة الرسمية للعالم.

طريق وعر لاستعادة الكلمات

تُعلمنا رواية "1984" أن الجدار الأخير الذي يحمي الإنسان من التداعي أمام بطش الاستبداد، هو القدرة على صيانة لغته وذاكرته، التي تمهّد لمقاومة واعية وممنهجة لهذا الاستبداد. فالاستبداد يبدأ دائماً حين يُصادر حقنا في التسمية، ويسقط حين نقوى على استعادة المعنى الحقيقي للأشياء.

إن التمسك بالكلمات الحية، ورفض القواميس المعلبة التي تزيّفها ماكينات الهيمنة، هو في صميمه فعل مقاومة وجودي. ففي مواجهة عالم يسعى لبرمجتنا بالصمت والتواطؤ وإفراغ الكلمات من مفاهيمها ومعانيها، يظل انحيازنا للكلمة الصادقة، وقدرتنا على تفكيك التضليل المستمر هو الحصن الذي تتكسر عنده كل أوهام "الأخ الأكبر"

مارغريت آتوود: بطلي جورج أورويل (ترجمة)

الكاتب: إبراهيم عفيفي